ما سمعت وما رأيت
في بلاد السوفيت
-٢-

موسكو :

وهي عاصمة الاتحاد السوفيتي والجمهورية الروسية الاشتراكية (احدى الجمهوريات الست عشرة التي يتألف منها الاتحاد) وكانت من قبل عاصمة إمارة عرفت بمسكوفية (Moskovy) ومنه اشتقاق كلمة موسكوف التي كانت تطلق على سكان هذه البلاد (الشعب الروسي) .

أقمنا في هذه العاصمة معظم المدة التي قضيناها في بلاد السوفيت ، ولم تكن هذه المدة القصيرة كافية لزيارة معاهدها العلمية وأماكنها الأثرية ، إذ اقتصرت زيارتنا على ما جاء في البرنامج الذي ذكر آنفاً مع ما أضيف اليه من مؤسسات ومتاحف خلال مقامنا القصير بين الرحلتين من هذه العاصمة الى لينغراد وستالينغراد والعودة منها .

وموسكو ليست من المدن العريقة في القدم إذ لم يأت لها ذكر قبل سنة ١١٤٧ ميلادية وليس لها من العمر إذن سوى ٨٠٠ سنة . وأول ما بنيت المدينة على رابية في ضفتي نهر موسكوا (Moskova) وعظم شأنها منذ أن اشتد أزرها ببناء الحصن الشهير فيها وهو الكرملين (Kremlin) صداً لغارات الغزاة ، واتسع البنيان حول هذا الحصن على ممر الزمن اتساعاً على شكل دائرة تحيط به من الجهات الأربع ولذلك بقي في مركز المدينة كأنه قلبها الخفاق مع بقاء معظم الأبنية الهامة على الضفة اليسرى من النهر المذكور .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد أتاح لموسكو موقعها الجغرافي أن جعلها بمعزل عن السبيل التي يسلكها الغزاة القادمون من الشرق ، كما ان مركزها في حوض نهري الدون والولغا ساعدها على الازدهار ، لا سيما وهي العاصمة السياسية القديمة والعاصمة الدينية (مقر الكرسي البطريركي منذ سنة ١٣٢٨) . على أنها لم تنج من صولة المغول والتتار عليها عدة مرات حتى اتخذها الأمراء الروس في القرن الخامس عشر مركز الحشد لصد المغيرين وطردهم . وعرف ايفان (يوحنا) الثالث وايفان الرابع بقيصري موسكو إذ ازدهرت في عهدهما المدينة واطرد فيها النمو والاتساع في القرن السادس عشر مع ما أصابها من حرائق واسعة (١٤٩٨ و ١٥٤٧ وغيرهما) ومع احتلال البولونيين إياها . وبدأت حركة المقاومة من موسكو سنة ١٦١٨ لتحرير البلاد حتى أُطلق عليها اسم المدينة المقدسة . ورأى بطرس الأكبر بعد أن أنشأ مدينة جديدة على الساحل وقام بالاصلاحات الكثيرة أن ينقل العاصمة من موسكو الى تلك المدينة (وقد عرفت بمدينة بطرس بتروسبورغ ثم بتروغراد ولينغراد حالياً) مع احتفاظها بلقب المدينة المقدسة حيث يتوج فيها القياصرة وبقاؤها مقراً للمجمع المقدس (السينود) والمقام البطريركي .

وغزاها نابوليون سنة ١٨١٢ فتم له فتحها بعد معركة دامية عرفت بمعركة موسكوا ثم اضطر الى مغادرتها إثر الحريق الكبير الذي قيل إنه أوقده سكان البلد بتحريض قادتهم والذي أتى على ما قيل على $\frac{4}{5}$ المدينة وأصاب الروس فيه زهاء ١٥٠٠٠ جريح ، وكانت مغادرته إياها في ١٩ من تشرين الأول . ونسف الجنرال مورتيه (Mortier) الذي خلفه فيها قلعة الكرملين . ويفتخر القوم بالهزيمة الشنعاء التي أوقعوها بالجيش الافرنسي الذي لقب في ذلك الحين بالجيش الذي لا يغلب وتراهم مزهوين بنقش أسماء الجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن البلاد بنقش أسمائهم على لوحة تذكارية يراها الزائر في أحد جدران الكرملين بعد أن كوفئوا بمنحهم لقب فرسان صليب القديس جورج ، كما أن متحف الكرملين يضم البنادق الكثيرة التي غنمها الروس مع الأعلام العديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي آخر سني الحرب العالمية الأولى دارت معارك قوية في معظم المدن الروسية وكانت موسكو مسرحاً للحرب الأهلية وبعد الثورة البولشفيكية غادر بتروسبورغ الى موسكو في الثامن عشر من آذار سنة ١٩١٨ قطار يقل أركان حكومة السوفيت الجديدة وأصبحت منذ ذلك التاريخ عاصمة الجمهورية الروسية وعاصمة الاتحاد معاً، وأقرّت المادة ١٤٥ من الدستور السوفيتي اعتبارها العاصمة الوحيدة لبلاد الاتحاد وأصبحت القوانين والمراسيم والبلاغات لا تصدر عن الحكومة إلا وهي متوجة بالكلمتين الآتيتين : الكرملين ، موسكو .

مساحة المدينة السطحية ونفوسها :

لقد اتسع نطاق موسكو مع مرور الأيام حتى قدرت مساحتها السطحية مؤخراً بما ينيف على ٤٠ ألف هكتار مربع وتبلغ المسافة بين أقصى الشمال والجنوب من المدينة زهاء ٢٥ كيلومتراً . أما السكان فان آخر إحصاء رسمي جرى سنة ١٩٣٩ (قبيل الحرب الأخيرة) بلغ عددهم فيه ٨٦٦٣٠٠٠ نسمة ولا أظن أنها زادت على هذا الرقم كثيراً في الآونة الأخيرة .

ومناخ موسكو لا يفترق عن مناخ بلاد الاتحاد السوفيتي الأخرى تهبط درجة الحرارة فيه الى ما دون الصفر في الشتاء وتجمد مياه الأنهر ١٣٥ — ١٦٠ يوماً في السنة ودرجة الحرارة الوسطى في كانون الثاني — ١٠ بينما ترتفع في تموز الى ١٩و٢ وسطياً وقد شاهدناها تهبط في آخر تشرين الثاني الى — ٨ . لذلك يسترها الثلج في معظم الشتاء وارتفاع موسكو عن سطح البحر يختلف بين ١٦٥ و ٢٨٥ متراً والرياح الغالبة فيها جنوبية وجنوبية غربية .

نظرة عامة :

إن من الصعب على من أقام في موسكو تلك المدة القصيرة التي أقمناها أن يفي وصف العاصمة حقه مع كثرة ما فيها من معالم ومعاهد ومؤسسات فلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غرو إن اجتزأت بذكر بعض ما سمعت وما رأيت وما قرأت عنها ، قبل ذكر المؤسسات والمعاهد العلمية .

تعد موسكو ولا شك من أعظم مدن العالم دع عنك شأنها السياسي في هذه الآونة باعتبارها عاصمة بلاد تبلغ مساحتها سدس اليابسة ، وحاملة لواء المعسكر الشرقي ضابط التوازن الدولي ، وهي من المراكز الصناعية الهامة تحوي المعامل الكثيرة لمختلف الصناعات ، ناهيك بمركزها الثقافي والعلمي وكثرة ما فيها من معاهد وان جامعتها التي سيأتي وصفها تعد من أكبر جامعات العالم (ان لم تكن أكبرها فعلاً) .

فمظاهر المدينة تدل على عظمتها في شتى النواحي والقادم اليها من المطار يخترق الى قلب المدينة شوارع فسيحة حسنة الإضاءة ليلاً على غاية من النظافة بما لا ترى له مثيلاً في العواصم الأخرى (ولا أنفرد بهذه الشهادة بل سبقني إليها غير واحد من الغربيين الذين زاروها) . ولا غرابة اذا علمت ان هذه النظافة وهذا النظام البديع الذي تسير عليه المرافق العامة مردهما الى تضافر العمل بين زهاء نصف مليون من العمال والمهندسين والفنيين يشرفون على تسيير شؤون العاصمة والسهر على تحقيق ما تحتاج اليه من صيانة الطرق وتنظيفها الذي لا ينقطع حسبما تستلزمه فصول السنة ، وضمان حسن السير فيها وتعهد الأشجار والنباتات المختلفة المغروسة في جوانبها وفي حدائقها العامة ، وما لا ندحة عنه لرفاه الفرد والمجموع من كهرباء وماء وغاز وتدفئة وغيرها .

ويضفي على تلك الشوارع الفسيحة الأبهة والعظمة ما يحيط بجانبها من أبنية شامخة بيضاء لا أثر فيها للسواد الصادر عن دخان المعامل الذي يملأ جو مثيلاتها من العواصم الأوربية . وانه لمن الخطأ أن يظن ظان ان ليس في موسكو سوى هذه المناظر البهيجة التي تأخذ بمجامع القلوب إذا لم يخرج السائح الغريب نزيل أحد الفنادق المخصصة للأجانب والتي تقع في قلب المدينة ، عن هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النطاق المضروب . ولكن متى سنحت لك سانحة وجزت تلك الدائرة المحيطة بك مشياً فان عينك سترى ولا شك مناظر نقيض ما تقدم : أزقة ضيقة ودوراً صغيرة من الآجر الأحمر وطرقاً سيئة التعبيد لما تمتد اليها يد الإصلاح والتنظيم بعد . هذه هي موسكو القديمة من بقايا القرون الماضية وتلك موسكو الحديثة التي تم تنظيمها وفاقاً لمشروعي السنوات الخمس والسنوات العشر ، وهي إحدى المفارقات بين الماضي والحاضر . وهل خلت روما وباريز ولندن من مثل هذه الأحياء في يومنا هذا ؟

فقد سمعنا ان موسكو لم يكن فيها في مطلع هذا القرن سوى ٨٠٠ بناء عديد الطوابق (يحوي أكثر من طابق واحد) ولم يكن سوى دور مركز المدينة مجهزة بوسائل الراحة العصرية مما حمل إحدى الجرائد الانكليزية سنة ١٩١١ على القول بأن موسكو تحتاج الى ٥٠٠ سنة لتصبح مظاهرها تحاكي مظاهر عواصم العالم . إلا ان المنهاج الذي وضع لتجميل موسكو بعد أن أصبحت العاصمة وما بذله المهندسون من جهد عظيم قد أثمر أينع الثمر والتطور فيها غدا مستمراً ، ومظاهره تطغى على القديم بسرعة فائقة . وها هو قد تم لها في بضع عشرات من السنين ما ظن أنه يستغرق خمسمائة سنة . فقد شقت في هذه الفترة شوارع جديدة ووسع ما كان منها ضيقاً (مع بقاء بعضها مثالاً للعيان الآن ، حتى قيل لنا ان ما كان منها بعرض ١٦ و ١٨ متراً أصبح عرضه ٤٠ أو ٤٥ متراً وإن منها ما بلغ من العرض ٧٠ متراً واضطر المشرفون على شؤون المدينة في سبيل هذا التوسيع والتعريض الى هدم ما ينبغي هدمه وإبقاء ما لا يجوز الاستغناء عنه فعمدوا حفاظاً عليه الى أن يعولوا على طريقة سبقهم إليها الغربيون ولكنهم أتقنوا التنفيذ وأحسنوه على نطاق واسع ، وهو أن يخلوا ما تحت أرض البناء وأن يجعلوا هذا يستند الى أعمدة حديدية متينة رصفت أفقياً ثم أن يدفعوا الى الوراء بالبناء الذي أصبح كأنه على عجلات ـ المسافة المطلوبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دفعاً تدريجياً يستلزم مدة غير قليلة من الزمن . ونجا من الهدم على هذه الطريقة عدة أبنية ورأيت في شارع غوركي كيف أن المستشفى القائم هناك قد زحزح بضعة عشر متراً مع تغيير طفيف في الاتجاه فيه ، وقد روى الدليل أن أعمال المستشفى في أثناء ذلك لم تتوقف ولم يتوان الجراحون عن المثابرة على التوسط الجراحي خلال هذا النقل العجيب .

قلت إن موسكو القديمة آخذة بالزوال لتخلفها موسكو الجديدة التي حق لها أن تباهي ببنيانها الأبيض لكثرة استعمال الحجر الأبيض في البناء مع ما يستلزمه طراز البناء العصري من ميكانيكيات ضخمة رأيت بعضها في البنيان القائم إبان زيارتنا ورأيت نماذج مصغرة عن بعضها الآخر في أحد المتاحف التي زرناها . وإن من الأبنية الحديثة ما هو مخصص للسكن ومنها ما يبنى لاتخاذه مقراً لدوائر الحكومة والمؤسسات العامة . فما يبنى لأجل السكن بناؤه مماثل ، الشكل فيه على هيئة حرف U بحيث تترك الساحة بين الأضلاع الثلاث للفضاء تتعرض لنور الشمس ولا تحجب هذا عن أجزاء البناء الرئيسية ، وتتخذ حديقة يملؤها النبات في جانب باحات الألعاب الرياضية فتصبح متعة لسكان تلك الدور ومرتع لعب ولهو لأطفالهم ومثل وحدات السكن هذه قد حلت أزمة السكن [1] .

(١) لم يتح لي الاطلاع على حقيقة ماترويه المصادر الغربية من اشتداد أزمة السكن في المدن السوفيتية الكبيرة وفي موسكو خاصة . وإن من غريب ماقرأته في دائرة المعارف البريطانية في مادة موسكو قولها : ان ازدياد عدد السكان الناجم عن تمركز الحكومة في موسكو منذ ثورة ١٩١٧ واشتداد النزوح والهجرة من أنحاء الامبراطورية الشاسعة كل ذلك قد أوجد ازمة في أماكن للسكن لم تكن لتكفي حتى سنة ١٩١٣ . وفي سنة ١٩٢٣ لم يكن سوى ٨ ٪ من السكان يملك غير غرفة واحدة أو أكثر و ٥٤٫٧ ٪ كان يعيش كل اثنين منهم في غرفة واحدة و ٣١٫٨ ٪ خمسة في كل غرفة و ٤٫٩ ٪ أكثر من ثمانية أشخاص في الغرفة الواحدة . وتمضي دائرة المعارف قائلة وبالرغم عن هذه الشروط القاسية فان تقدماً عظيماً قد طرأ على الحالة الصحية وعلى رعاية الأطفال مما أفضى الى نقص بيّن في نسبة الموت . أقول ولا أظن أن احصاء دائرة المعارف المذكور ينطبق على حالة السكن وأزمته في الوقت الحاضر بعد ما رأيت الكثير من وحدات السكن تبنى على نحو ماتقدم وهي مؤلفة من مئات من البيوت التي لاينقصها شيء من وسائل الرفاه العصري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أدخل في برنامج التعمير سنة ١٩٤٧ تشييد الأبنية العديدة الطوابق (Multi-storied) نظير ناطحات السحاب في الولايات المتحدة ، وأشهر هذه الأبنية جامعة موسكو ويتألف جناحها المركزي من ٣٢ طابقاً (وسيأتي وصفها في مقال آخر) وأبنية الوزارات في (Lermontov) و (Kotelnicheskaya) وغيرهما من الأبنية التي يزيد عدد الطوابق فيها على ٢٠ ويميل المهندسون السوفيت الى التفنن في المظهر الخارجي والتزيين ، وهي ولا شك من أجمل الأبنية وأحسنها مظهراً وإن شابهت في الظاهر مثيلاتها في البلاد الغربية . ونرى هذا التفنن والتنويع في المظهر الخارجي في الأبنية العامة الأخرى كمحطات سكك الحديد ومحطات المترو خاصة . فمثل هذه الأبنية وبوحدات السكن السالفة الذكر قد تغير وجه موسكو وبدأ يتطور سنة بعد سنة .

وتكثر التماثيل في شوارع موسكو وحدائقها العامة وهي في الغالب تماثيل شخصيات الثورة والعسكريين وكبار الأدباء والشعراء الذين هيأوا السبل لها أما تماثيل الزعيمين لينين وستالين فلا تقع تحت حصر ناهيك باللوحات العديدة التي تمثلهما في حالات مختلفة والتي لا يخلو منها أي مكان .

والشوارع كلها مفروشة بالاسفلت والرئيسية منها لها في جانبيها رصيفان لا يقل عرض بعضها عن ١٠ أمتار مخصصة للمشاة أما السيارات فلها ثلاث طرق فما كان منها في الجانبين فهو للسيارات العامة كل واحدة منها لأحد الاتجاهين في السير والثالثة بينهما مخصصة لسير سيارات الاسعاف والحريق بحيث لا يخل مرور هذه بأقصى السرعة مرور السيارات الأخرى في الجانبين . وربما كان هذا الطراز من التنظيم هو الوحيد من نوعه ولم أر مثيله في العواصم الكبرى التي زرتها .

وطبيعي أن لا يعرقل سير السيارات على نحو ما ذكر ، سير المشاة الذين لا يتخلون أبداً عن الرصيف مع المحافظة التامة على نظام السير ، وما إن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يصل هؤلاء الى قرب مفترق الطرق إلا وتراهم شاخصة أبصارهم الى اشارات السير الكهربائية حتى إذا ما آذنت هذه بالمرور رأيت عشرات من الخلق بين رجال ونساء وأطفال تمر بنظام بديع .

ويتم تنظيف الشوارع بين كنس وغسل في الصباح الباكر من كل يوم وذلك بمعونة الآلات الضخمة العديدة حتى ان شارعاً كبيراً كشارع غوركي لا يستلزم تنظيفه أكثر من ساعة ونصف الساعة . هذا في الصيف أما في الشتاء فان الآلات ذاتها تضاف اليها أجزاء جارفة تجرف الثلج عن الطرق في الصباح الباكر أيضاً . وقد سمعت أن في موسكو زهاء ألفين من هذه الآلات . وكثيراً ما رأيت قبيل منتصف الليل وأنا عائد الى الفندق مشياً من يقوم على ذر الرمل على الرصيف المستور بالثلج وفيهم بعض النساء تسهيلاً لمرور المشاة .

والأشجار الباسقة في جانبي الطرق يبدو بعضها حديث العهد ، ويعنى القوم بغرس الأزهار وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ولا سيما في الحدائق العامة التي لا يكاد يخلو منها أحد الشوارع الكبيرة بنم ترتيبها على ذوق سليم . ولعلّ حديقة بوشكين (Pushkin) التي أنشئت مؤخراً من أجمل تلك الحدائق الغناء فيها البحيرات والنوافير الجميلة التي يسقط منها الماء على هيئة شلالات بهيجة ناهيك بالممرات الجميلة بين الخمائل والرياحين . وانه ليزيد في جمال المنظر ما كان من الشوارع الفسيحة على ضفتي نهر موسكوا أو القناة التي وصلت ما بين نهري الولغا وموسكوا حيث ترى جموعاً من المتنزهين والمتنزهات على تلك الأرصفة الواسعة في جانب الجالسين والجالسات على المقاعد العديدة . وكان من أثر شق القناة المذكورة اتساع حركة العمران ووصل موسكو بالبحار الخمسة كما سيأتي بيانه وضمان ما تحتاج إليه العاصمة من ماء وقد قدر بمليون ليتر في الدقيقة .

ومن طابع هذه البلاد الخاص أن لا ترى أسماء تشير الى أصحاب المخازن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكبيرة والمتاجر المختلفة في جانب الشوارع ولا أسماء القائمين على إدارتها ، وتعرف متاجر المخازن والمتاجر لكل حرفة من الحرف بأرقامها المتسلسلة ، فالصيدليات مثلاً تجد في الشارع الفلاني الصيدلية ذات الرقم ١١٠ وفي غيره الصيدلية ذات الرقم ١٠٠ وكذلك المكتبات والبقاليات ومخازن المأكولات لكل من هذه رقمه الخاص الذي يعرف به ، وواجهات متاجر المأكولات تحوي نماذج مصنوعة من الشمع تمثل الأصناف التي تباع في داخلها كاللحم والبيض والخضراوات وما إليها . والمدارس وقد زرنا إحداها في ضواحي موسكو كان رقمها ٧٠٢ وقيل لنا إن في موسكو ٧٢٠ مدرسة ثانوية مثلها .

وساعات العمل وأوقات الدوام في هذه المحلات التجارية وفي دوائر الحكومة والمؤسسات العامة موحَّدة تختلف في بلاد الاتحاد السوفيتي عنها في البلاد الأخرى . يبدأ العمل فيها كلها في الساعة العاشرة ويتوقف في تمام الساعة الثانية ليستأنف من من الساعة الرابعة حتى الثامنة . ويستثنى من ذلك باعة المواد الغذائية من ألبان ومشتقاتها ومخابز وما إليها فان العمل فيها يبدأ من الصباح الباكر . وإن من المشاهد المألوفة في بلاد الاتحاد السوفيتي الكبيرة وأخصها موسكو أن ترى جمعاً من الناس بين رجال ونساء ينتظمون أمام تلك المخازن والمتاجر وغيرها بما فيها دور اللهو والمسارح على شكل حبل (ويسميه الفرنسيون ذيلاً Queue) قد يبلغ من الامتداد والطول حداً كبيراً . فترى الحبل أمام بائع اللبن في الصباح الباكر وفي الشتاء القارس ، وترى مثله بعد الظهر أمام المخازن الكبيرة قبيل وقت افتتاحها حتى إذا آن وقت هذا الافتتاح في تمام الساعة الرابعة على الضبط فتح الباب ودخل أفراد ذاك الجمع بكل هدوء وسكون ، ولو أتيح لك أن تتابع طريقة العمل في داخل أحد تلك المخازن لرأيت أن أولئك المشترين يذهب كل منهم الى قسم الصنف الذي يود شراءه وما هي إلا دقائق حتى تتألف حبال أخرى أمام البائع فيتقدم كل واحد ويشتري ما يريده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(بالسعر المحدود) فيعطيه المشرف على البيع ورقة تبين الصنف المشترى وثمنه فيحملها الشاري ليأتي أمام مكتب الصندوق فينتظم في حبل آخر منتظراً دوره حتى اذا بلغه دفع الثمن واسترد الورقة التي أشير فيها الى دفع الثمن وعاد الى بائع الصنف الأول واقفاً في عداد أفراد حبل آخر ليقدم في حينه الورقة الموقعة من الخازن ويستلم الصنف المشترى ويخرج بعدئذ من هذه الجولة غير القصيرة بسلام متأبطاً ما اشتراه ، وينتظم القوم في هذه الحبال أو الأذيال داخل المخازن أو خارجها مثنى مثنى ولا ترى أحداً يسابق الآخر . وإن وقوفهم الطويل وانتظارهم المديد وصبرهم على ذلك قد أصبح مضرب الأمثال بين الأمم الأخرى ومدعاة للتنكيت حتى قال أحد الظرفاء الأجانب عن الشعب السوفيتي أنه يقسم ساعات يومه أثلاثاً : ثلث للعمل وثلث للنوم والثالث للانتظام والوقوف في تكوين الحبال . وإن من أطول الحبال التي شاهدناها (وكنا في عداد أفراده) ما كان مؤلفاً استعداداً لزيارة ضريح لينين وستالين في الساحة الحمراء وسيأتي وصفه حين ذكر الكرملين والساحة الحمراء .

وإن مما ينتبه اليه الغريب عن هذه الديار أمارات الجد والهدوء البادية في حركات أهلها وسكناتهم ، فانك لا ترى أبداً من يقهقه في قارعة الطريق حتى ولا من يبتسم اللهم إلا إذا كان حدثاً ، فضلاً عن أن ترى سكران أو معربداً ولو كان طوافك في الهزيع الأخير من الليل . وطابع الجد الغالب عليهم يتجلى بأجلى مظاهره عندما تحضر إحدى المسرحيات الهزلية ، وأذكر اننا حضرنا مرة المسرح الذي يعرف بكوكلي (Kokli) ويعرف بالفرنسية بـ (Marionette) وأبطال التمثيل فيه دمى كبيرة بحجم الإنسان الكهل يحركها ويسيرها من تحت المسرح فنانون مهرة حتى ان المشاهد لتلك الدمى وهي تمثل الأدوار الدقيقة (بما فيها الشعوذة) باتقان خارق ليشك في حقيقة أمرها ، وإن المفاجئات التي لا بد وأن تتخلل ذاك التمثيل الهزلي لما يضحك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشكلي ، ومع ذلك فانك إن سمعت أو رأيت في القاعة الفسيحة المكتظة بالحضور أحداً يضحك بملء فيه فتأكد أنه ليس من أهل البلاد بل هو أحد السياح الأجانب .

ولباس أهل هذه العاصمة تغلب عليه البساطة فليس للأناقة فيه أثر إن في الشوارع أو في المسارح (ولا سيما دور الأوبرا) أو في الأعياد (وقد شهدنا أحدها) . فاذا ظننت (ولك الحق) أن من يقع عليه نظرك من المارة في الطرق هم عمال كادحون أو من ذوي الأشغال الذين ليس لهم أن يتأنقوا في الملبس ، فما بالك بشهود السهرات ولا سيما في الأوبرا حيث اعتاد الغربيون أن يأخذوا أحسن زينتهم فيها ، واني لأذكر في باريز مثلاً كيف يشترط على شهود بعض المسارح ولا سيما الأوبرا لباس السهرة الخاص بالرجال والنساء على السواء وسمعت رد المشرفين عليها من لم يلبس اللباس المطلوب وإعادة ما دفعوه اليهم . هذا في المجتمعات الغربية أما في المجتمع السوفيتي فلا أثر لما ذكر مطلقاً ، اللهم إلا أفراد بعض الجاليات الأجنبية إذ يحافظون على ما اعتادوا عليه من لباس خاص في مثل هذه المناسبات . ولا عجب فان الطبقة الأريستوقراطية التي اشتهرت بها روسيا القيصرية قد انقرضت عن بكرة أبيها وورثها كبار موظفي الحكومة والمبرزون من العمال لينعموا بنعماء أولئك .

وإن مما يسترعي الانتباه في هذه البلاد مظاهر الحشمة البادية في النساء وفقد الخلاعة ، وأن لا يرى ما أصبح مألوف المنظر في العواصم الكبيرة الأخرى من بنات الهوى اللواتي يتفنن في نصب الأشراك لتصيد طلاب اللذة الأثيمة ، شأن ما هو شائع في حي مونمارتر بل وفي جميع شوارع باريز عندما يرخي الليل سدوله ، ودائرة بيكاديللي في لندن ، وجوار المحطة الكبيرة في روما ، نعم لا أثر للمومسات المحترفات في موسكو ولينغراد وغيرهما من المدن السوفيتية الكبيرة . وقد أعجبني ما كتبه القسيس الانكليزي (Mervy Stockwood) [1]

(١) في كتاب له عنوانه ذهبت الى موسكو (I went to Moscow) طبع في لندن سنة ١٩٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أذهله ما لاحظه من فقد المومسات في بلاد الاتحاد السوفيتي مقايساً ذلك بما اعتاد أن يراه في لندن من كثرة بنات الهوى الآخذة بالزيادة سنة بعد سنة ، فسأل السفارة البريطانية في موسكو وقد أكدت له صواب ملاحظته بأن لا أثر ظاهراً للدعارة في هذه البلاد ويمضي قائلاً : لا أدعي أن من يود من الرجال استجابة رغبته الشهوانية أن يعدم الواسطة أو لا يجد السبيل اليها ، ولكن ليس بوسع أحد من الناس أن يظهر هذه الرغبة على ملأ الخلق . ولما سألت دليلي (كلام القسيس) إلى أي شيء يعزو انطفاء جذوة البغاء في هذه البلاد أجابني بقوله إن على النساء أن يشتغلن أحد الأشغال ويقمن ببعض الأعمال ولا حاجة لهن للكسب من قارعة الطريق ، وان الشرطة لتقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أي عمل مخل ليرسل الى أحد مراكز التهذيب والتثقيف ، وأحر بنا (كلام القسيس) أن نتعلم من السوفيت ، إن حالة لندن لمعيبة ولا لوم على الغرباء بكل ما يظنون بنا ، لقد حان الوقت للحكومة أن تسلك الخطة القويمة ، وينبغي جعل البغايا في بيوت يتاح لهن فيها التدريب ليخرجن منها وهن نافعات في المجتمع ، عوضاً من فرض العقوبة الطفيفة عليهن ، وعلى القصاص أن يكون وفاقاً للذنب كالسجن مدى الحياة لمن يتخذ الدعارة مهنة تجارية . ويختم كلمته أخيراً بقوله اني لآسف ان حكومة لادينية قد نجحت فيما أخفقت فيه حكومة مسيحية .

وانه لتدعم صيانة الأخلاق العامة بما رواه القسيس نفسه بعد نزوله من الطائرة التي أقلته الى موسكو عندما فتشت حقائبه في المرفأ الجوي من أن التفتيش المذكور لم يقتصر على ما قد يحمله من بضائع تخضع لرسوم المكس بل تعداه الى ما قد يكون في تلك الحقائب من كتب ومجلات وصحف ، ويقول القسيس لم تكن الغاية من هذا التنقيب الخشية من الشؤون السياسية وحدها بل قد خصص بما اشتهرت به الصحافة الغربية من دناءة (كذا) ولا يسمح للصحف السوفيتية أن تذكر أخبار الجرائم الأخلاقية ولا أثر فيها للصور الشائع نشرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في المجلات الانكليزية وقد أخبروني (قول القسيس) عن الوصمات غير اللائقة التي يصمون بها صحفنا ولا سيما بعض الصحف الصادرة أيام الأحد . وطبيعي أن يعزو (السوفيت) استئثار الغريزة الجنسية الى الخطة الميكانيكية التي يسلكها رأسماليو الصحافة (Press barons) .

والمرافق العامة من ماء جار بارد وحار وكهرباء وغاز وتدفئة غاية في الترتيب والنظام ولا سيما في وحدات السكن الحديثة ، فللتدفئة المركزية التي يعتمد عليها في التغلب على البرد القارس ، مصلحة عامة تشرف على توزيع الماء الحار الى الأبنية المختلفة بأنابيب تجري فيها تحت الأرض ولا حاجة إذن لاستعمال المراجل الموضعية المولدة للماء الحار ولا يقتصر توزيعها على الدور والمخازن فقد لاحظت التدفئة على أتمها في المراحيض والمباول العامة التي يغشاها الناس في شوارع المدينة . والكهربائية كثيرة الذيوع للاستعمالات البيتية على اختلاف أشكالها ، وكذلك الغاز الذي لا يزال يعتمد عليه بالتدفئة في الدور القديمة التي لما يسعدها الحظ بامتداد أنابيب الماء الحار اليها .

ووسائل النقل العام والمواصلات تتلاءم وعظمة العاصمة تماماً ففي جانب السيارات الصغيرة المعدة للأجرة (تاكسي) ولها مواقفها الخاصة في الشوارع الكبيرة ، والسيارات الخاصة الآخذة في الزيادة بعد أن تحول انتاج معامل السيارات من الانتاج الحربي الى الانتاج المدني ، في جانب هذه وتلك الباصات الاعتيادية والباصات المسيرة بالطاقة الكهربائية (Trolley - Buses) دون خطوط حديدية وعلى عجلات من المطاط والترام (الحافلة الكهربائية) ثم المترو (Metro) والبواخر الجواري في الأنهار والقنوات . فالحافلات الكهربائية آخذة في الزوال (شأن الحال في معظم المدن الغربية) وتخلفها الباصات الكهربائية والباصات العادية ولكليها الخطوط العديدة وكلها نظيفة وتسير بنظام دقيق . ويعد المترو من مفاخر هذه العاصمة إذ بذت به أمثاله في العواصم الأخرى قاطبة لا بنظافته ودقة العمل فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فحسب بل بفخامة التصميم ومظاهر الترف الماثلة في محطاته البادية فوق الأرض وفي مماشيه الفسيحة المحفورة تحت الأرض . فقد بدئ بانشاء الخطوط الحديدية تحت الأرض في سنة ١٩٣٢ تخفيفاً للازدحام الذي بدا في وسائل النقل المختلفة في جانب السرعة الفائقة في التنقل بين أجزاء المدينة المختلفة ورخص الأجرة . واقتصر امتداد الخطوط الأولى على ما وصل ما بين المرافق العامة كمحطات سكك الحديد والحدائق العامة والمسارح وبين مركز العاصمة بأقصر طرق الوصول وتم الانشاء سنة ١٩٣٥ واتسع بعدها نطاق شبكة المواصلات هذه حتى خلال الحرب الوطنية (هكذا يسمون الحرب العالمية الثانية) مما جعلهم يشيرون الى ذلك في بعض الأماكن من الخط المذكور . ومحطات المترو حري بها أن تدعى بالقصور لفخامة مظهرها وسعة المماشي تحت الأرض وما زينت به جدرانها من رخام وتماثيل ولوحات التصوير ناهيك بمحلات بيع المرطبات وبيع الجرائد وبعض المآكل ، وانتظام السير في القطارات والنظافة البالغة في أماكن الجلوس ، والسرعة التي تبلغ فيها ٦٠ كيلومتراً في الساعة . وقد أحصي عدد الركاب اليومي فبلغ مليونين . وقد شاهدت هذا الترتيب البديع عندما ركبت فيه مع رفاقي من المحطة المركزية الى المحطة القريبة من المفوضية السورية ولم نلحظ أثراً للضوضاء التي ترى عادة في مثل هذه الحال ، ولاحظنا بين الركاب احترام الشباب والشابات للمسنين والمسنات وللأطفال وتركهم لهم المقاعد في حال الازدحام .

هذا وإن الصرامة التي تطبق بها القوانين والأنظمة المسنونة قد جعلت الناس يتحاشون المخالفة ، فلم أر ولم أسمع خلال إقامتي في هذه البلاد عن أي حادث اصطدام أو دهس أو سواه مما يكثر حدوثه في البلاد الأخرى . وقد علمت أن إجازة السير التي تعطى الى السائق يتغاضى فيها عن إتيانه بثلاث مخالفات مدى قيامه في العمل يكتفى حيال هذه الثلاث بالجزاء النقدي أو تنزيل المرتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشهري ، وفي الإجازة الممنوحة إليه ثلاث دوائر صغيرة يحق للشرطي أن يثقب كل واحدة منها إثر اقتراف السائق إحدى المخالفات ومتى تم ثقب الدوائر الثلاث وأتى السائق بمخالفة رابعة سحبت منه إجازة السوق فوراً وما عليه بعدها إلا أن يرقب مصيره الجديد بأن يكسب قوته من عمل شاق آخر إن في بلده أو في أقصى مجاهل سيبريا .

وترتبط موسكو بالبلاد الأخرى بشبكة من سكك الحديد عددها ١١ خطاً توصل بينها وبين أقصى البلاد في الشرق . وإن من الخط الحديدي الذي دشن في مطلع عام ١٩٥٤ ما يوصل بين هذه العاصمة وبكين . وتنتهي هذه الخطوط أو تبدأ من محطات أقيمت في إحدى الساحات العامة وعددها ٩ بناؤها أشبه بالقصور ويختلف المظهر الخارجي في كل منها عن الآخر اختلافاً بيناً ، وإن من أقدم هذه المحطات محطة (Leningradsky) وقد سافرنا منها الى لينغراد ومضى على تشييدها أكثر من مائة عام وأحدثها محطة (Kazansky) وهي أوسعها وأفخمها تمتاز بما تحويه من غرف عديدة الانتظار مع وسائل الراحة الكاملة لآلاف من الركاب ولهذه المحطة فندقها الخاص في جانب المطعم الأنيق والمخازن المعدة لتنظيف الثياب ورفوها والوحدة الطبية التي تتألف من عدة أطباء وممرضات ومكاتب للبرق والهاتف والبريد وباعة المرطبات وغيرها .

ومحطات سكك الحديد لكل منها وسائل النقل المختلفة من حافلات كهربائية وباصات وخطوط مترو في جانب المواقف المخصصة لسيارة الأجرة العديدة .

والخطوط الحديدية التي تربط العاصمة وضواحيها مسيرة بالطاقة الكهربائية ، بينما الخطوط الطويلة لا تزال تسير بالوقود واستبدال هذه بالكهربائية آخذ بالامتداد سنة بعد أخرى وسيأتي وصف داخل هذه القطارات عند ذكر سفرنا من موسكو الى لينغراد والعودة منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وينضم الى وسائل النقل البرية المذكورة وسائل النقل النهرية التي تنشط في فصل الصيف ففي سنة ١٩٥٢ افتتحت القناة التي توصل بين نهري الولغا (Volga) ودون (Don) وبها تم ربط موسكو ببحار أوروبا الخمسة جاعلة إياها مرفأ لها . ومع شق هذه القناة فقد عُمق نهر موسكوا حتى أصبح صالحاً للملاحة النهرية ، وتوفرت به المياه الغزيرة التي تحتاج اليها العاصمة لأجل شؤون المدينة أو لمعاملها المختلفة ، وبالسدود السديدة التي أنشئت أمكن توليد الطاقة الكهربائية المستعملة في الشؤون المختلفة ، وتوفر نقل المحاصيل الزراعية والبضائع المختلفة بأقصر الطرق وأقلها كلفة .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net